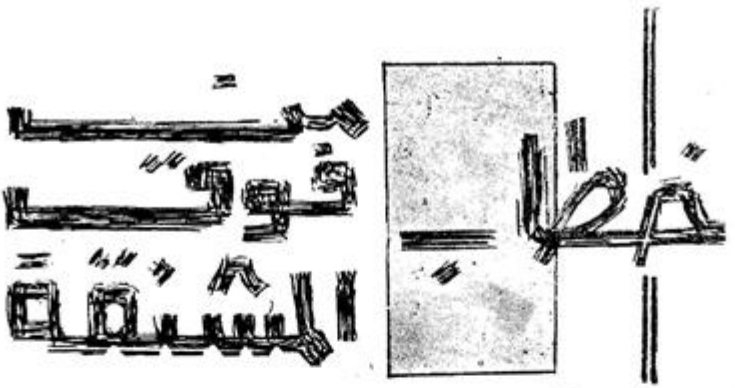

للكاتبة الألمانية

الزا ايشنجر

ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقى

الكاتبة الألمانية الزا أيشنجر ما تزال على قيد الحياة وقد جاوزت زهرة العمر ولم تعرف بعد خريفه وقصة اليوم لاتمت الى الحرب بصلة مباشرة لكنها من أقوى الدلالات على أسلوبها الذى يحكى كما قال أحد النقاد عما للشيء وما عليه وعن الأمس واليوم وعن الممكن والمؤكد جدا معا فهو يجمع الأضداد فى شيء واحد • ليس فيه ما يتصل بالتاريخ ولا بعلم النفس وانما هو جماع تشبيهات تحيط بأدق وأخص الماجريات فى حياة الفرد • وأول شرط فى رأى الناقد الذى أشرنا اليه لفهم الزه أيشنجر أن لا نرد فى الحال ما نقرأه لها الى ما ألفنا قراءته • وحســـبنا وهى من عمد الأدب الألمانى الحديث أن نرضى رغبة القارىء العربى فى تذوق لون شعرى من ألوان هذا الأدب •

ومن قصصها القصيرة « المشدود الوثاق » و « الأمر المفضـــوض » و « المعلم الخاص » و « أطياف البحر » •

***

أغرب عنى ! ما معنى هـذه العجلة ؟ كم تراك شانقا اليوم ؟ ألست آخرهم ؟ ثم ، ماذا يقوم بنفســك وأنت تسرع هذا الاسراع ؟ أتريد أن تنام ؟ أنا أيضا يا أخى ، أنا أيضا ، سينام كلانا ، ولن نغشى بعـــد ذلك أحلامى • انك تبدو وجلا ، ولكنت خليقا أن أفزع أنا ، وأن أستيقظ قبلك • أغرب عنى بحبلك !

وأنتم يا من تقفـون تحت ! الى أية أركان تدفعكم ريح الصباح الرقيقة ؟ انه لا تكليف عليكم فى يوم تشتد فيه الريح ولا خروج • ألم أكن أنا أيضا لا أكلف

الا يوم تبعث بى أمى الى الخارج ؟ لكنى راض · وأنتم ؟ لا ؟

انكم تلازمون الظل أطول مما ينبغى وهناك فى الفناء تحت ألا يخيم الظلام ؟ فهلا صعدتم الى لتروا كيف تتعدد ألوان ثيابكم ، وكيف ينصع بياض قمصانكم ويتقد كالنـــار ؟ تعـــالوا الى ليزداد اضـــطرام خدودكم ، ولا تنتظروا حتى تأخذ الشمس ، وقد خنقهـــا العرق ، تتسلل الى أركانكم جميعا · انها هنـا أكثر بكورا · هنا يكون ضحكها صادقا، ووهجها ما يزال باردا · هنـا تداعب الشمس الريح قبل أن تخنقها · هنـا تكون الريح ما تزال أختا لها · وانى لأقول لكم : هنا تكون الشمس ماتزال تهب ، والهواء هو الذى يلتمع · ثم ان اليوم لآخر يوم أيضا ، وان الســـاعة كذلك لأول ساعة !

دعوا أطفالكم يصيحون واصـــعدوا الى ! لا تقفوا ساكنين هـــكذا تحت ! لا تحملقوا فى متلهفين هكذا · لقـــد أحرقت أفنيتكم وصوامعكم لكى يسمح لى بالوصول الى هذه الالواح · لقـــد لبثت ليالى كثيرة وحيدا ، وحيدا فى كل منها كما تكون الوحدة فى قاع البحر · وأنتم ؟ هل قتلتم ؟ كلا ؟ هل أضرمتم النار ؟ هل سرقتم ؟ لا شىء أصـــدق · اذن ففيم حق عليكم الموت اذا كان لا بد من موتـــكم ؟ انى أعرف لماذا يجب أن أموت ، فاصـــعدوا بالله الى ! مازلتم تأبون ؟ لـــكنى أقول لـــكم ان الألواح سوف تميد بكم اذا حدثتكم أنفســكم بالرقص عليها ، وكل الحبـــال ســـوف ترتخى لحظة أن يفرغوا من فصل أجسامكم عن المشنقة · وفى غسق الليـــل تنعق الغربان بأحلامـــكم فوق كل الافنية · أفلا ترغبون ؟ ألا يحب أحدكم أن يعرف لماذا يموت ؟ هـــل أضرمتم النار قبل ميلادكم كى تولدوا للموت ؟ أتسلمون بأن أمهاتكم خففن عنكم النهاية من قبل وهن فى آلام الوضع ؟ انكم لا تحيرون جوابا · انكم تقفون تحت ساكنين كما لو كنتم قد شـــنقتم بالفعل ، كما لو كنتم فى الكثرة بحيث تتواصـــون فلا تسقط جثثكم هـــامدة من الموت · الا ما تحركتم ؟

أنسيتم اللبن ؟ ان أطفالكم يصرخون فانصرفوا الى منازلكم ، أو فقد يقع أن يضرم أحـــدهم نارا قبل أن يبلغ من العمر ما يستحق عليه الشنق · اذرفوا كل لهفة من أعينكم قبل أن تروعكم هذه الأعين · أما بكم من شوق الى الصمت الذى ينتظرنى ؟ هلا حاولتم أن تشبعوا من جوعكم ؟ عودوا الى منازلكم ! امضوا فى جر ظلالكم !

كم من العمر ما يزال باقيا لكم ؟ كم يوما ؟ كم ساعة ؟ كثير ، كثير ـ كم يبقى منها ؟

أريد أن أساعدكم · فهل لى أن أقرأ أكفكم ؟ هل لى أن أحصى الصـــلبان على جباهكم ؟ أيهـــا القتلة الذين لم تقتـــلوا قط ، ومضرمو النار الذين لم تحرقوا قـــط ، واللصـــوص الذين لا يجرؤون على السرقة ـ هدءوا : كم يبقى لك من العمـــر أنت ! يامن تقف تحت ، وأنت ! يا هـــذا الواقف عن يساره ، اياك أعنى · كم سنة تحيا فوق ما حييت ؟ لا تعلم ؟ فهل أنبئك أنا ؟ سنة · ثم هذا الذى الى اليمين ، كم ساعة ؟ ساعة ! والذى الى جانبى ، كم لحظة ؟ لحظة واحـــدة أقول لك · انكم لا تصدقوننى ، أقسم لكم بالأرض التى تنسحب من تحت قـــدمى ، وبالهـــواء الذى يكتنفه الضـــياء الى حد ألا تطمع

رئتاى المظلمتان فى استنشاقه طويلا ، وبالسماء التى تقع تحت قدمى بمجرد أن تميد الالواح ، ان أحدا منكم لن يعيش لنصف صيحة طائر أطول مما أعيش . ان أحدا منكم لن يعيش أطول مما كتب له لحظة أخرى .

حاولوا بربكم وامضوا الى بيوتكم ! احتثوا أقدامكم ما استطعتم فستبقى كل خطوة هى آخر خطاكم ، وكل حفنة من الهواء هى آخر ما تتنفسون ، وكل مرة ترفعون فيها رؤوسكم المحمومة عن وسائدكم هى آخر مرة . احصوا ، احصوا ، فلن يزيد العدد . افعلوا ما بدالكم فسيبقى كل شىء واحدا فى هذا الضوء الساطع الذى ينشره الوداع فى هذا الضوء الذى يكشفكم أول ما يكشفكم ويلزمكم حدودكم ، ثم يخلقكم دائما من جديد .

أليست وليمة الجلاد قبل كل ليلة مأ تتناولون كل مساء ؟ ألا ينهض الدليل على النهاية فى أولادكم ؟ من ثم تحبونهم : لأنكم محكوم عليكم مثلى . لأنه من ظلالكم وحدها تتكون الارض الثابتة .

أين كنتم خلقاء أن تكونوا لو أنكم لم تعرفوا نهاية ؟ أين ؟ فى غير مكان ذلك أن نهايتكم هى التى أوجدتكم ـ كالحبل الملتف حول رقبتى ـ انتظر يا أخى ، انتظر بالله ! دعنى أكمل ، دعنى أشيد بالنهاية فى هذا البكور المشرف ! دعنى أحبك يا أخى ، يا صاحب الوجه المرتاع ، فالخوف هو الذى يحول ابتسامك الى احترام ، النور قبل كل وداع .

ذلك انه قبل أن كنت ، كانت نهايتك يا أخى ، فهى التى أنمتك ، ورعتك ، وصانتك ، وغذتك ، هى التى أحبتك ، وجعلت من أكاذيبك حقائق ، وما تزال تجعلك احدى الحقائق . ما تزال تحبك وترعاك وتصونك ، ولو جفتك النهاية ما كنت ، لكنك هكذا تكون ، تكون لأنك تزول ، ولأنك كنت ، ومن ثم ستكون . ولأن النهاية لا نهاية لها أبدا ، كذلك أنت لانهاية لك . من ثم اشنق يا أخى كثيرين آخرين ، حك رقعا فوق نعال ممزقة أو انظم أبياتا من الشعر . كم كنت تصبح عبثا لو لم يكن كل شىء تفعل عبثا ؟ هل كانت الشمس تطلع اذا لم تكن تغيب ؟ دعنى أحبك يا أخى ، دعنى أحب نهايتى التى تبقينى فى قيد الحياة .

وأنتم أيضا ، يا من أنتم هناك تحت ، انكم قبل أن تلتفتوا تكونون فى خبر كان . ان رأسى أسرع فهو يلتفت من ثم أسهل . لفوا الحبل حول رقابكم حتى تروا الحمام الابيض يطير ، والريح تتبدى . وحتى يضىء الورد الأحمر ، والورق الأخضر ، وحتى تبذروا الثمار كل مرة لمرة واحدة ، ولا تحصدوا مرة لكل مرة . دعونى أحصد الآن يا اخوانى ، دعونى أحصد السماء التى لا تكون أعلى الا فوق أفنية المشانق . ان الحمام يحلق بمجرد أن تهبط الغربان ، ويمضى الليل ويبقى لى الصباح الأبلج يبدو فى لمعانه كقطعة الذهب التى لا أريد بديلا منها ، ولاأريد عوضا عنها بيتا أو حقلا ؛ كما لا أريد بهذا البكور مساء .

ان الوقت يسرع ، والشمس تتسلل من الصقالة الى أسفل . انها تنساب بينكم وتجعل نفسها فى متناولكم ، وتنحدر ، وتزداد فى انحدارها عمقا ، وتعلو وتهبط ، وتزداد علوا ، وكلما

ارتفعت ، بعدت على الدوام فى هبوطها فوقكم غورا ، حتى يتبين فى الظهيرة العالية أول ما يتبين أن هبوطها وحده ينتزعهـــا من التراب ثانية ، وانهـــا يجب أن تهبط الآن لتبلغ السماء فوق ظلالها من جديد • لكنى لا أنتظر هـذا الوقت الطويل ، فلا ينبغى أن يحرقنى الضياء ولا أن أتفصد بعد الآن منجميع المسام عرقا • ادفعوا الألواح الآن من تحتقدمى وانصرفوا • فيم استمراركم فى وقوفكم وتمزيقكم شفتى بحملقتكم؟ لقد أضرمت النار فيمـــا لم يكن لى ، وشدوت بأغنية لم تكن نابعة منى • من أجل ذلك انسونى ، أتســـمعون ! لا أريد أن أبقى قيـــد ذاكرتكم ، فلن تدركنى ، ولن تبادر الى ، ولن تبعثنى • لا أريد أن أحيا فى ثغاء أحقادكم ــ كلا ــ ومع ذلك أريد أن أعيش ، فانســـوا اذن ، ودعوا لحمى يهرأ فى عظامى كى تضىء ، فانى أريد أن أعيش !

أسرع ، وشد الحبل ، وزد وثاقه ، فلا أعود أصـبو الى العرق أو أتوق الى الفزع فى الليل اذا انتصف ، ولاأطلب اختراق البـاب كرة أخرى لأرافقكم ، كلا ، فأرضىهنا ! ان أنضر الحقول تنبت فى الوداع ، وأعمق الغابات تنجم فى خشب المشنقة •

صدقونى بربكم ! تعالوا الى ! ودعوا يا اخوانى واحدا يحبكم لن تستطيعوا بعد اليوم خديعتـــه ، واحدا يجرؤ أن يرضاكم فى نومه كما أنتم • تعالوا ، تعالوا تحركوا أخيرا ! شـــقوا الطريق لانفسكم بأنفسكم •

مكانا لرسول الملك ! مكانا لمبعوثه ! هـدوءا ، لا تقلدونى ! مكانا ، مكانا ــ لمن ؟ ماذا تريد يا أخى ؟ أتريد أن تسخر منى بأنك تفعل ما أبغيه ؟ ماذا تجلب لى ؟ ماذا تمسك فى يديك الحاويتين ؟ تكلم ! بل لا تقل شيئا ! لا تحل ضحكى الى دموع ، ولا دموعى بعـد ذلك الى ضحك ! دع نفسك يزهق الكلمة التى تريد أن تنطقها • انى أرى فى عينيك التائهتين ما تجلب لى • أليس حكمك هو العفو ؟ أقدر لى أن أعيش ؟ •

عد من حيث أتيت ! قل لمن أرسلك انى لا أريد أن يكون لى بالعفو شأن • فلم أعد أصدق خوف البلاد ، وضـوء القمر ، وراحة البال • قل له انى لاأدع أحدا يتخذنى مضـحكا أو يجعلنى أبنى له من الرمل البليل قصورا ، فقد بات الفيض الذى يغمر شطآنه أقوى منى • وفوق المد الذى يرسله هـــذا الفيض لا أذرع قرطما • قل له ان أرضـــه حيث تكون لو أن فيضه انحسر لحظة • قل له انه لأحب الى أن أتوجه الى النوم مفتوح العينين منأن أستيقظ مغمضهما• ولأخلق بى أن أقصـــد الى الملك الذى لا يتخذ مهرجا • ان الملائكة لا تضحك ، فاذهب اذن ولا تظل واقفا كمن يريد أن يكون مرآتى •

من أنت ؟ أتراك الحرمان الذى يولد اللهفة الحين بعد الحين ؟ انك لأفقر من أن تمنحنى مرة أخـرى مـا لم أطلب • لست أريد أن أكون اللهفة الصـاعدة من الحرمـــان • لا ترفع كتفيك فى استخفاف هكذا • خير من ذلك أن تقول لجلادى ان يعجل بشنقى كى اختفى من هنا ، كى تستطيع أخيرا أن تخلو الى نفسك تحدثها • قل له ــ أين ذهب ؟ أين جلادى ؟

لقد انصرف جلادى • اختفى كاللص وسرق الحبل من عنقى ، نادوه ليرجع !

ان عدوه ان يرد الحبل الى ، فلا يجوز أن يسلبنى السير الأحمر قبل أن يكون لى ، لا يجوز لأحد أن ينتزع من يدى مجرد فقر ٠

ابقوا ، ابقوا ، لاتتسللوا ! لاتدعونى وحدى الآن فى الحداد الذى أسبغ على فى صورة العفو ثم هو لا يرحمنى ٠ لقد رددت لثانى مرة الى الرغبة التى لم تحدنى ٠ ما تزال السماء لا تجدنى من الخفة بحيث أرضى أن أفقد الأرض التى تحت قدمى ٠ لا مفر من أن أمضى فى مسيرى فوق الحجارة ، فوق هذه الأرض التى لا تشدنى اليها بالقدر الكافى لأن أخلد فيها الى الراحة فلا تدعنى لكواكب أخرى ٠

لقد جئت الى العالم مرة أخرى من يقول لى مرة أخرى ان القمر مصباح والسماء قبه ؟ من يعلمنى أنا الذى لا أعرف سوى البحر من حول الصخور جميعا ، أن أركن الى الصخر فى البحر ؟

لا تدعونى وحدى الآن ! خذونى معكم ! ألم أقل والحية ما تزال ملتفة حول عنقى ان أعماركم ليست أطول من عمرى ؟ ألم أقل ان كل خطوة من خطاكم هى آخر خطاكم ؟ هكذا ستبقى خطاى اذا أنا صاحبتكم ٠ هكذا لاينسخ العفو الحكم ولا يلغى الحكم العفو ٠ هكذا لا يسمق الخشب بلا نفع ٠ هكذا يلقى ظله فوقنا جميعا ويقتسم ضوء الأنوار حيث يستقر ٠

لا تهربوا منى ! لا يدركم خوف من أن أضرم النار ثانية فى محاصيلكم ، فسيحيلها غيرى أيضا ضياء ورمادا ٠ يبقى منها ؟

وانى لأحب أن أترقب هذا فى سكون.

أريد أن أبذر القرطم فى رمل المد ، وأحصد الصوامع المحرقة ، أريد أن أبنى قصورا ٠ أريد أن أكون مضحكا للملك ، وأن أمرح فى حدائقه ، وأن ألوذ به ٠ أريد أن أنشر الأشرعة فى الهواء الساكن ، وأدير المحراث فى كافة المستنقعات ٠ أريد أن أنظر الغد الذى هو اليوم ، وليهجرنى أبنائى ٠ أريد أن أرفع قبعتى حين تضج المدقات فى الأجراس ، ثم أمضى فى سبيلى كما لو كنت آيبا الى بيتى ٠

وسواء أكانت السماء هى القبة أم كانت النار التى تحرق القبة ، فانى أريد أن أحصد ما وعدت ، أن أحصد السماء ٠